المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية

المجلد الخامس، العدد الثالث، 111:93
أيلول (2023)

بحث رقم 2

المصادر الثقافية في شعر برهان الدين العبوشي- ديوان جنود السماء أنموذجًا

Cultural Sources in Poetry Burhan Al-Din Al-Aboushi- The Collection of Soldiers of the Sky is an Example

نبيل علي حسنين

Nabil Ali Hasanain

أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية- جامعة البترا- الأردن

Assistant Professor in the Department of Arabic Language, University of Petra, Jordan
nabilhasanain@yahoo.com

Received استلام البحث	Revised مراجعة البحث	Accepted قبول البحث
2023/8/29	2023/9/25	2023/10/8

DOI: https://doi.org/10.31559/JALLS2023.5.3.2

This file is licensed under a *Creative Commons Attribution 4.0 International*

رفـــاد REFAAD
www.refaad.com

International Journal for Arabic Linguistics and Literature Studies (JALLS)

المجلة الدولية للدراسات اللغوية والأدبية العربية

Journal Homepage: https://www.refaad.com/Journal/Index/6

E-ISSN 2663-5860 | P-ISSN 2663-5852

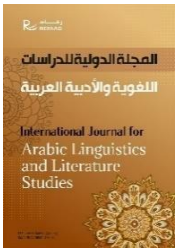

المصادر الثقافية في شعر برهان الدين العبوشي- ديوان جنود السماء أنموذجًا

Cultural Sources in Poetry Burhan Al-Din Al-Aboushi- The Collection of Soldiers of the Sky is an Example

الملخص:

الأهداف: يطمحُ البَحثُ أنْ يقفَ عِنْدَ المصادرِ الثقافيّة الرّئيسيةِ التي شَكّلت شِعر الشاعر الفلسطينيّ برهان الدين العبوشيّ في ديوانِهِ جُنود السماء، ومن ثَمّ معرفة أثر هذه المصادرِ الثقافيّة في أفكارِه، واتجاهاته، وآرائه. وتأثير كل ذلك في شعره، ومن ثَمَّ في قَضِيَّتِهِ التي وَقف حياتَهُ للدفاعِ عنها. ويُعدّ التناصّ أحد الطرق المُهمة التي يُمكنُ بها الاطلاعُ على مَصادِرِ المُبدِعِ الثقافيّة، فهو آليةُ حَفر وتنقيبٍ، تَحفرُ في النصّ عَميقاً، لترصد فيه، آثارَ النصوص السّابقةِ، والأفكارِ القديمةِ أيًّا كانت، ومِن ثَمّ تُعللُ سبب استعانةِ المبدِعِ بها، وأخيرًا تُوضحُ الثقافة التي أثرت في الشّاعر.

المنهجية: وقد اعتمدَ البحثُ على المَنْهجِ الوصفيّ، للقيامِ بعمليات إحصاء تناصات العبوشيّ مع مصادره الثقافيّة، وتصنيفها، ومن ثَمّ حصر القصائد والأبياتِ الشّعريّة التي ضمَّت هذا، انتقالًا إلى تحليلها وشَرحِها وبيان هذه المصادر، وبيانِ مرامِها، ومعانيها، والقصد من جلبها، وسبب الاستعانة بها.

خلاصة الدرسة: وبناءً على ذلك تَبيّنَ أنّ المَصادرِ الثقافيّة في شعر العَبوشي كثيرة مُتنوّعة، منها: القرآنيّ، ومنها الحَديثيّ، ومنها التاريخيّ. أمّا عدد التداخلاتِ مع هذه المصادر الثقافيّة فقد وصل إلى مَا يَنوفُ على الثلاثمائةِ.

الكلمات المفتاحية: *التناص؛ برهان الدين العبوشي؛ القرآن الكريم؛ الحديث الشريف.*

Abstract:

Objectives: The purpose of this study is to show the main cultural sources that formed Burhan Al-Din Al-Aboushi's poetry in his collection of poems (the Soldiers of the Sky), and then knowing the impact of these cultural sources on his ideas, trends and opinions. Finally, showing the effect of all of these on his poetry and cause that he defended all of his life. Intertextuality is one of the important ways to know all of that because it stimulates the text deeply to show the ancient history traces and the culture that influenced the poet.

Methods: The study uses the descriptive inductive approach to confine the intertextuality in Burhan Al-Din Al-Aboushi's poetry with his cultural sources, then it has been used to confine the poems which included the phenomenon; after that, the study gives an explanation of the phenomenon.

Conclusions: Consequently, the study finds that there are different forms of cultural sources in Burhan Al-Din Al-Aboushi's poetry, including religious and historical ones. Whereas the number of Intertextuality is more than three hundred.

Keywords: *Intertextuality; Burhan Al-Din Al-Aboushi; The Holy Quran; Prophetic tradition.*

المقدمة:

يُعدُّ برهان الدين حسن قاسم العبوشي، المولود عامَ 1911م في جِنين الفلسطينيّة، والمتوفى 1995م، واحِدًا مِن شُعراء المقاومة الفلسطينيّة في العصر الحديث، ويعدُّ شِعره تمثيلًا صادقًا واضحًا لِخطِ الملتزِمِ بقضيته، القضية العربية الفلسطينية. ويدلّ على ذلك سيرة حياتهِ، فقد حُرم مِن شهادته المدرسية بَعْد أنْ ألقى خُطبة معزّزةً بقصيدةٍ ثوريّة طويلةٍ، منها قوله:

ما عادَ شيءٌ مِن الدّنيا يُواسينا إلا دِماءُ العِدا تروي مواضينا

ثمّ تتالت بعد هذا نضالاته، ففصل من الجامعةِ الأمريكية حيث كان يدرس، ليلتحق بعدها بالعمل العسكريّ والكِفاحِ المُسلّح، ومواجهة الانتداب البريطانيّ يوميّا، ثم مواجهة شُذاذ الآفاق الصهاينة الغاصبين (الزواتي، ص 20).

وانطلاقًا من هذا أحببتُ النظر في تجربة العبوشيّ الشعريّة ودراستها في جانبٍ من جوانبها، فاستقر الرأيُ على المصادر الثقافية في شعره، لتتبع المحفزاتِ التي دفعت الشاعر للإخلاصِ لقضيتهِ. وسيتعينُ البحثُ بالمنهج الوصفيّ الذي سيهتم بإحصاء وتصنيفِ ووصفِ (قاسم، ص 60) المصادر الثقافية للشاعِر العبوشي في ديوانه جُنود السّماء، وسيستعينُ لبيانِ هذا بالتناصّ أداةً وآليةً. وديوان جنود السماءِ هو أحدُ دواوين أربعة أصدرها الشاعر هي: جبلُ النار، والنيازك، وإلى متى، وجنودُ السّماء، والحديث سيتركّز في هذا البحث على هذا الأخير. وهو ديوانٌ كان الشاعر قد أصدره في طبعته الأولى عام ألفٍ وتسعمائةٍ وخمسةٍ وثمانين في لجنةِ التراثِ الأدبيّ الفلسطينيّ الموجودةِ في الكُويتِ آنئذٍ. وهو ديوان متوسطُ الحجمِ جاء في مقدمةٍ قدّمها له الشّاعر في بغداد في السادس والعشرين من الشهر الثالثِ للعامِ الميلاديّ ألفٍ وتسعِمائةٍ وخمسةٍ وثمانين، وخمسٍ وثلاثينَ قصيدة، هي:

القصيدة	الصفحة	القصيدة	الصفحة	القصيدة	الصفحة
الفرقان	227	عُمر على عمر	302	الأقصى الحريق	313
تحية	287	جنَّتي	303	الله جلَّ جلالُهُ	314
تململ الليث	287	ليتَ	304	الإعداديّة المركزية	315
أحبّ المؤمنين	290	ألا هل زُرتَ بيسانا	305	كمب ديفيد	317
يا ربّ	291	أينُ القائدُ	306	حياة بعد موت	319
نور مكّةَ	294	التأميم	307	أنا قوميٌّ وقوميّ أنا	319
حنانيكَ بيتَ الله	296	مسجدُ الفاروق	309	دعانا النفير	320
وصيتي	298	جِنين	310	إلى الجهاد	321
الفدائيون	299	أشواق مُحرقة	310	رسول الله البطلُ الخالدُ	322
ابن الفداء	300	جابي الأمانة	311	ابن بيسان	323
لغة الرصاص	301	تمادي الليل	312	إلى الحربِ	323
اللهبُ المقدس	302	المُجاهدُ العربيّ	312		

ولم يراعِ الشاعر في ترتيبها على ما ظهر نظامًا معينًا، سواءٌ أكانَ تاريخيًّا أو أبجديًّا، فمن الملاحظ أنّ فيه قصائد قد نُظمت قبل تاريخِ طبعِ الدّيوان بفترة طويلةٍ، ولا أدري أتذكّر المناسبة فكتب فيها، أم إنّه أضافها لمناسبتها فكرة الديوان العامّة، أو فكرةٍ خاصّةٍ في ذهنهِ، ما هو؟ لا أدري، إلا أنْ تكونَ قضيةً موضوعيةً غير فنيّة.

فمثلًا قصيدةُ "تأميم"، أو "ألا هل زُرتَ بيسانا" التي نشرتها جريدة الوحدة في العشرين من الشهر الأول للعام الميلاديّ ألفٍ وتسعمائةٍ وخمسةٍ وأربعين (1945م) ردًا على الشّاعر علي منصور. ومن ذلك أيضًا قصيدةُ "أنا قوميٌّ وقوميٌّ أنا" كتبها كما جاء في الديوان في وقتِ المدّ الأحمر في بغداد، ومطاردةِ الأحرار، سنة ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانٍ وخمسين (1958م)، ومن ذلك أيضًا قصيدته الموسومة بـ"الأقصى الحريق" كَتَبَها وَقتَ الحرقِ عام ألفٍ وتسعمائة وتسعةٍ وستين (1969م)، كما أنّ قصيدة "مسجد الفاروق" التي أرسلها إلى محافظ بغداد في الثامن والعشرين من الشهر العاشر للعام الميلاديّ ألفٍ وتسعمائةٍ وواحد وسبعين (1971م). أمّا قصيدةُ "يا رب" فقد كتبها عام ألفٍ وتسعمائةٍ وأربعةٍ وسبعين (1974م). وقصيدةُ "تململ الليث" كَتَبَها بمناسبة هجومِ العربِ في مصر والشّام على العدو المشترك في السادس من الشهر العاشر للعام ألفٍ وتسعمائةٍ وثلاثةٍ وسبعين (1973م). وقصيدة "كمب ديفيد" التي كتبها في معاهدة كمب ديفيد التي وُقعت عام ألف وتسعماية وثمانية وسبعين (1978م) بين أنور السّادات الرئيس المصريّ وكارتر الرئيس الأمريكيّ في الولايات المتحدة الأمريكيّة لتسوية القضية الفلسطينيّة، وكانت النتائجُ مُخزيةً للعرب، وعارًا على الإسلامِ. و"قصيدة نور مكة" التي كتَبَها بمناسبة الحج عام ألفٍ وتسعمائةٍ وثمانيةٍ وسبعين (1978م).

أمّا عن سبب اختيار عُنوان الدّيوان فيبدو ذلك جلياً من الحديث الشريف الذي دوّنه الشاعر بعد العنوان، وهو قوله صلى الله

عليه وسلم: "عينان لا تمسهما النار: عَيْنٌ بَكَتْ من خَشيةِ الله، وعينٌ باتت تحرُسُ في سَبيلِ الله" (الترمذي، ج4، ص 175)، و(المقدسيّ، ج10، ص 375)، إذْ على ما يبدو قد خصَّصه لهاتين الفئتين من النّاس: التي تخشى الله، والتي تجاهدُ في سبيله. ولو نظرنا في قصائد الديوان لوجدناها تنقسمُ إلى هذين القسمين، ولو صنفناهما في ذلك لخرجنا بالجدول الآتي:

خشية الله	الجهاد في سبيل الله
الفرقان	تململ الليث
تحية	الفدائيون
أحبّ المؤمنين	ابن الفداء
يا ربّ	لغة الرصاص
نور مكّةَ	اللهبُ المقدس
حنانيكَ بيتَ الله	ألا هل زُرتَ بيسانا
وصيتي	أينُ القائدُ
عُمر على عمر	التأميم
جنَّتي	جنين
ليتَ	أشواق مُحرقة
مسجدُ الفاروق	تمادي الليل
جابي الأمانة	المُجاهدُ العربيّ
الإعداديّة المركزية	الأقصى الحريق
حياة بعد موت	الله جلَّ جلالُهُ
رسول الله البطلُ الخالدُ	كمب ديفيد
	أنا قوميٌّ وقوميّ أنا
	دعانا النفير
	إلى الجهاد
	ابن بيسان
	إلى الحربِ

أمّا الشّاعر فيقولُ في ذلك: "تلقّتُ حولي، وفكرتُ في ديوان (جُنود السّماء)... ماذا أسميه؟! وقد كانَ أوله تضمين شعريّ على وزنِ واحدٍ لأسماءِ سورِ (القرآن الكريم)، وكنتُ أظنُّ أنّ أحداً لم يسبقني إلى ما عَزَمتُ عليه، وتبيَّنَ لي بعد ذلك أنَّ أحدَ أدباءِ الفترةِ المظلمةِ قد سبقني بنظمِ أسماء السور الكريمةِ بقافيةٍ مُختلفةٍ على غِرارِ ألفيةِ ابن مالك في النحوِ، علمتُ ذلك من الأديبِ الكبيرِ الأستاذِ محمد بهجت الأثريّ. ووردتْ على ذهني عناوين كثيرة، وإذا بمصائبِ أمتي وحالةُ فلسطين وأيتامها ونسائها وشيوخها المشردين في الآفاقِ تلحُّ بهذا العُنوان... (جُنودُ السّماء) ما دامَ حُكامُ العربِ وجنودُهم غائبينَ عن المعركةِ، ولا يشاركونَ في إنقاذ إخوانِهم في العروبةِ والدينِ، وما دامَ بعضُ الحُكّامِ يستغِلُ النكبةَ لإحرازِ نفعٍ من اليهودِ، ومن دولٍ أجنبيةٍ مُعاديةٍ للعروبةِ والدّينِ"(العبوشي، ص275).

ويكمل الشاعر قائلًا: " لقد طربتُ لهذا الإيحاءِ (جُنودُ السّماء)، ولا سيما أنَّ موضوعه يتصلُ بنورِ الآياتِ الكريمةِ، وقصائدِ الحجِ المباركِ، وقلتُ في نفسي إنّ (جنودُ السماءِ) يجاهدونَ في سبيلِ الله ويُستشهدونَ قريبونَ بثوابهم من الملائكةِ بثوابهم من الملائكةِ (جنودِ السّماء)، فقد وعدهم الله تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران، 169)، وهكذا أكونُ بهذا العُنوانِ قد نهتُ جنودَ العربِ إلى الاقتداءِ بجنودِ السّماءِ؛ لينالوا شرفَ الجنةِ، ويتركوا من بعدهم ذُريّةً كريمةً سعيدةً في وطنٍ سعيدٍ"(العبوشي، 275).

أمّا عن هَدَفِ الدّيوانِ كما قالَ الشاعر: " كنتُ أقولُ في خَلواتي: ما بالُ الشّعراء يباركونَ أنفسهم بشعر الصّبابةِ والغزلِ ومدحِ الحاكمين، ولا يتقربونَ إلى خالقهم بشعر تفوحُ منه روائحُ الجنّةِ، وتطمئنُ به قلوبُ المؤمنين، وتصحو به قلوبُ الغافلين، ويستلهمُ به الطلابُ والشبابُ معرفةَ خالقهم، فينسجونَ نسجَ الصالحين المجاهدين، فيكسبونَ العزيمةَ والعِزَّ والعملِ، ويَسْعوْنَ إلى طلبِ العِلمِ الصحيحِ، فيستقيمُ لهم دربُ الصبر والإيمان وحبّ الوطن والعزّ والجاه. الشعر شعورٌ، وليس الشعور ما تعوّدهُ المارقونَ مِن التهتكِ بذكرِ العيونِ النُّجلِ، والشّفاه المَصبوغةِ، والخصرِ البتيلِ، ممّا ذَمَّهُ المتنبي حين وصفَ جمالَ بناتِ البادية يَقول:

أَفدي ظِباءَ فَلاةٍ ما عَرَفنَ بِها مَضغَ الكَلامِ وَلا صَبغَ الحَواجيبِ

حُسنُ الحَضارَةِ مَجلوبٌ بِتَطرِيَةٍ وَفي البَداوَةِ حُسنٌ غَيرُ مَجلوبِ

الشّعورُ الحقّ ينبعُ من شرفِ الشاعرِ وضميرِهِ وتعلّقهِ بآلامِ أمتهِ وأفراحها، وقضايا وطنِهِ ومصير أهلهِ وتشرُّدهم وترحالهم الدائمِ من قطرٍ إلى قطرٍ، ومن عذابٍ إلى عذابٍ"(العبوشي، ص275-276).

وما دامَ الحالُ هذا، فمن الطبيعيّ أنْ يكثُرَ التناصّ في ديوان الشاعر هذا وعلى الرغمِ من بساطته فإنَّ كثرته كانت لافتةً للنظر، إذ في إحصاءٍ مبدئيّ أستطيع أنْ أقول إنها تقرب من ثلاثمائةٍ وثلاثين تناصًّا، يُبيّنها الجدول الآتي:

القصيدة	عدد التناصات	القصيدة	عدد التناصات	القصيدة	عدد التناصات
الفرقان	118	عُمر على عمر	2	الأقصى الحريق	2
تحية	7	جنَّتي	6	الله جلَّ جلالُهُ	5
تململ الليث	12	ليتَ	1	الإعداديّة المركزية	7
أحبّ المؤمنين	2	ألا هل زُرتَ بيسانا	4	كمب ديفيد	6
يا ربّ	43	أينُ القائدُ	6	حياة بعد موت	2
نور مكّةَ	15	التأميم	5	أنا قوميٌّ وقوميّ أنا	-
حنانيكَ بيتَ الله	22	مسجدُ الفاروق	5	دعانا النفير	1
وصيتي	16	جِنين	-	إلى الجهاد	4
الفدائيون	4	أشواق مُحرقة	4	رسول الله البطلُ الخالدُ	6
ابن الفداء	2	جابي الأمانة	1	ابن بيسان	1
لغة الرصاص	4	تمادي الليل	4	إلى الحربِ	2
اللهبُ المقدس	10	المُجاهدُ العربيّ	1	**المجموع**	**330**

تنوعت هذه التناصات، إذ جاءت في أربع عائلاتٍ كبيرة، هي:

- الآيات القرآنيّة.
- الأحاديث النبويّة الشّريفة.
- الأسماء التاريخيّة.
- الأحداث التّاريخيّة.

وقد جاءت في أنواعِ التناصّ المعهودةِ التي نعرفُ: المباشر، وغير المباشر. وقد جاءت بشكلِّها البسيط، لا المُعقد الذي عهدناه مثلًا عند كثيرٍ من الشّعراء، مِنهم على سبيلِ المثالِ: محمود درويش، ولإثباتِ ذلك سنعرضُ مثالًا توضيحيًّا للمقابلةِ بينهما:

يقولُ برهان الدين العبوشيّ(العبوشي، ص321):

يا ليتَ قَوْمِي يَعْلَمونَ بِما غَدا لكم من الجنتِ في نادي الهُدى

يا من يُقدّمُ للبلادِ حياتَهُ أُكرِمْنَ محتسباً وعشتَ مُخلَّدا

فتوظيف التناصّ عِنْدَ العَبوشِيّ هنا يَكادُ أنْ يكونَ لِخدمةِ ثقافته، واستعراضها، ومحاولةِ التأثير في القارئ، لا لخدمةِ فنيّة النصّ أولًا، وهي ناجمةٌ عن تأثُّره بثقافته، وتجاربِهِ الكثيرة، خاصّة الدينيّة.

وفي هذا السّياق يذكرُ الباحثون عددًا من الوظائف المهمة للتناص، أهمُّها: أنّهُ في السّياقاتِ المقارنة يكادُ يُظهِرُ تطوُّرَ اللغة الفنيّة عند الأديب، كما يكشِفُ عن مصادرِهِ الثقافيّة، إضافة إلى أنَّهُ يحفظُ عددًا من النُّصوصِ المرجعيّة المهمةِ، إضافةً إلى تحديدِ قُدرةِ الشَّاعر الإبداعيَّةِ عندَ مُقابلةِ توظيفِه الفنيّ للتداخل وتوظيف الأصل له، عدا الوظيفة الجماليّة التي يُضفيها النصّ المرجعيّ على النصّ الحاضر الجديد (الجبر، ص22-25).

فالعبوشيّ لم يستخدمْ أهمَ ما في التناصّ، بل اكتفى بالكشفِ عن مَصادره الثقافيّة، وهي ثقافة مستمدةٌ في جلِّها من القُرآن الكريمِ، والأحداث التاريخيّة المهمة التي عاشتها العرب في جاهليتها وإسلامها، ولو استعرضنا في هذا السياق بعض أسماءِ مسرحياته، لتأكَّدنا من ذلك قبل أنْ نقرأها، فمنها: مسرحيّةُ شبح الأندلس(العبوشي، ص423)، ومسرحيةُ عرب القادسيّة (العبوشي،ص503)، ولو تأملنا دواوينه الأخرى وعناوين قصائده لوصلنا إلى النتيجة نفسها.

أمّا تناصُّ درويش -على سبيلِ المثالِ- فيكادُ يكونُ ذا مِسْحة ضبابيّة، شفافة، لا تراها، ولا تلمسها، تشْعُرُ بوجودها ولا تعرف أين هي، إلاّ بعد معاناة وطول تأمّل ومعالجة. فهو في قصيدةِ (أنا يوسُف) (درويش، ص77)، يتحدَّثُ عن يوسُفِه هو، لا يوسُفُ بن يعقوب

أبدًا، وقد يكونُ الجامعُ/الرّابط بين اليوسُفين، مسألة الغَيْرة المُشتركةِ التي جمعت بينهما، إضافةً إلى بعضِ الألفاظِ الدّالة، مثل: يوسُف، الجُبّ، الذّئب، والعبارة الأخيرة التي يقولُ فيها(درويش، ص77):

هل جَنَيْتُ على أَحد عندما قُلْتُ إنّي:

رأيتُ أَحدَ عشرَكوكبًا، والشَّمسَ والقَمَرَ، رأيتُهُم لي ساجدين؟

إنّ الحدَثَ الرّئيس اللافت في سورة يوسف ليسَ إلا تلك العلاقة الأزليّة بين الرجل/المرأة، والعبرة التي يُمكنُ أنْ تُستقى من ذلك، فهي ذروة القصة وعقدتها التي بدأت بعدها القصة بالتعقّد ومن ثمَّ الانفكاك، غير أنّ الحدث الرئيس هنا عند درويش الرجل/ العشيرة، إيذاء العشيرة ليوسُف، والغيرة منه. ولذلك يكادُ بالمقابلة حدثُها يكونُ أقلَّ إثارة، ممّا لو كانت القضية مرتبطةً بأنثى نتيجة علاقة التلاقي والتضاد التي تجمع وتفرق بين الرجل والمرأة، مقابلة بعلاقة التكامل التي من المفترض أنْ تجمع الفرد بعشيرته.

وبهذا التناصّ الرّائع يبثُّ درويش شكواه الخاصّة / العامة، حِقد عشيرتِهِ (إخوتِهِ) عليه، وغيرتهم منه، فهم بها قد أذاقوه ألوانًا من العذاب الجسديّ والنفسيّ (درويش، ص77):

يَعتدُون عليَّ ويرمُونني بالحصى والكلامِ

يريدونني أَن أَموت لكي يمدحُوني

وهم أَوصدُوا باب بيتك دوني

وهم طردوني من الحقلِ

هم سمَّمُوا عنبي يا أَبي

وهم حطَّمُوا لُعبي يا أَبي

.....

فماذا فعَلْتُ أَنا يا أَبي،

لا لشيء إلا لأنّه يعيشُ بينهم (درويش، ص77):

لا يريدونني بينهم يا أَبي

.....

يريدونني أَن أَموت لكي يمدحُوني

ولأنّ اسمَه يوسف(درويش، ص77):

أَنتَ سمَّيتني يُوسُفًا،

ولأنّ الحظ يسيرُ إلى جانبه (درويش، ص77):

حين مرَّالنَّسيمُ ولاعب شَعرِي

غاروا وثارُوا عليَّ وثاروا عليك،

فماذا صنعتُ لهم يا أَبي؟

الفراشات حطَّتْ على كتفيَّ،

ومالت عليَّ السَّنابلُ،

والطَّيْرُحطَّتْ على راحتيَّ

على أيّ حالٍ، وليتضح الأمر بشكلٍ جليّ أكثر، فإنّني سأخصّص الصفحات القليلة التالية للحديث في التناص عند برهان الدين العبوشيّ، تحديدًا التناص الدينيّ، والتاريخيّ، فهما الأكثر بروزًا مقابلة بالأنواع الأخرى التي تداخل معها الشّاعر.

الدّراساتُ السَّابقةُ:

لم يحظ شِعرُ الشاعر العبوشي باهتمامِ الباحثين، وربما يعودُ ذلك إلى اغترابه وبعده عن وطنِهِ، وسعيه وراء لقمةِ عيشِهِ في بغداد، وإهمالِ النقادِ له ولشعره، ولذلك كانَ من الصعبِ أنْ أجد دراسةً نقديّة وافية مكتملةً الأركان لشِعر العبوشي، باستثناءِ دراسةِ حلمي الزواتي التي نشرت في جريدة الأنباء الكويتيّة سنة 1985م، وكان وسَمَها بـ"برهان الدين العبوشي: نضاله الوطنيّ وشِعره" وهي دراسةٌ تاريخيّة للشاعِر برهان الدين، تحدّث فيها الباحثُ عن دراسته ونضاله ضد جيش الانتداب البريطانيّ وعصابات الصهاينة آنذاك، ونفيه من فلسطين واعتقالاتِهِ، وهو في سياق كُلّ ذلك يعرض شيئًا من أبياته الشعريّة التي تُشيرُ إلى بعضِ هذا. ومن الواضح رغبة الباحث في تخليدِ هذا المناضل الفلسطينيّ الكبيرِ.

أمّا الدراسةُ الثانيةُ فهي للطالبة شمس الدين غنّام الموسومة بـ" برهان الدين العبوشي أديبًا " وهي رسالةُ ماجستير قُدمت عام 2012م في جامعةِ النجاح الفلسطينية، وقد جاءت الدراسةُ في أربعةِ فصول: هي الاتجاهات الشعريّة، والمسرحيات، ومذكراتِهِ "مِن السفح إلى الوادي أُلبّي نداء أجدادي"، والأخير جاء يتحدّثُ في التشكيل الفنيّ في شعره، وكان جُزء منه قد خصص للتناص من الصفحة (191) إلى الصفحةِ (207) وهي تتحدث في مجملِ تجربة العبوشي بشكل عامٍ سريعٍ خاطفٍ، وركّزت البحث على مسرحياتهِ والتناصّ فيها.

أمّا الدراسةُ الأخيرة فهي للباحثة زاهرة توفيق أبو كشك بعنوان الالتزام السياسيّ في شعر برهان الدين العبوشي، وقد جاءت الدراسةُ في (26) ستٍ وعشرين ورقة، وقد خصصت الباحثةُ هذه الدراسة لمتابعةِ جُهد الشاعر والتزامِهِ بالخط السياسيّ القويم الذي لا يحيد عنه تمهيداً لنقله في مرحلةٍ تالية للأجيالِ القادمةِ، وفي أثناء ذلك عرضت ملامح الالتزام السياسيّ في شِعر العبوشيّ لقضيته وأمَّتِهِ، اعتمادًا على الموقفِ، والاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعيّة والإنسانيّة. وما كُل هذا إلا نتيجة خذلان الكثيرين له ولقضيته، ولهذا فقد صبّ جُلّ جُهدِهِ في المحافظةِ على هذا الالتزامِ تلبية لطموحٍ وقريحة.

المصادر الثقافيّة في شعر برهان الدين العبوشي:

سينصبُ الحديثُ في السطور القادمةِ من البحث حول تتبّع المصادر الثقافيّة في شِعر برهان الدين العبوشيّ، وسيتخذ البحث التناصّ كما سبق وبيّنا آليةً للحفرِ والبحثِ والتنقيبِ عنها، وسأقسمُ المصادر الثقافية في شعره حسبما ظهر من قراءةِ ديوانه إلى دينيّة: القرآن، والحدث، وتاريخيّة. وسأشرعُ في الأوّل.

المَصادر الثقافيّة الدّينيّة في شِعْر العبوشيّ:

وهي المصادر التي نستطيع الوصول إليها بتتبع تناصات العبوشي الدينيّة مع النصوص الدينيّة، ويُقصدُ بالتناصّ الدِّينيّ تَداخل نُصوصٍ دينيّة مُختارة من القرآن الكريم، أو الحديث النبويّ الشّريف، أو الخُطب، أو الأخبار الدّينيّة مع النصّ الأصليّ للقصيدةِ، بحيثُ تَنسجم هذه النّصُوص مع السّياق الشّعريّ، وتُؤَدِي غَرَضًا فِكريًّا، أو فنيًّا، أو كلهما معًا (الزعبي، ص32) (الصمادي، ص 139، وص 106). والتداخل مع التراث الدّينيّ على العموم طريقةٌ "توظَّفُ لبلورةِ الحاضرِ مِنْ خِلالِ تَجربةِ الماضِي، وتُستحضر لتعزيز موقف الكاتب من الرؤى والمفاهيم التي يطرحها، أو يُثيرها في نصّه "(الزعبي، ص106).

احتوَتْ أشعارُ برهان الدين العبوشيّ نُصوصًا دينيّة كثيرة متنوعة، اندمجت وتداخلت مع نصوص الشّعر، وسياقاته المختلفة، مكوّنةً نماذج متعدّدة من التناصّ الدينيّ، أثّرَتْ في الفكرة المطروحة، وعمّقت الرؤية للأحداث، وأسهمت في تشكيل البناءِ الفنيّ لشعر برهان الدين العبوشيّ، وانقسمت كالعادةِ إلى مباشر وغير مباشر؛ ففي شعر برهان الدين العبوشي أفكارٌ كثيرة ومفاهيم متنوّعة، يُمكنُ أنْ يُشَارَ إليها، وإلى نصٍّ تداخلت معه في الوقت نفسه إيجاباً أو سَلْباً، كما يُمكنُ متابعة كيفيّة اندماجها في أفكاره المؤلّفة، ورُؤاه المختلفة؛ لتشكّل دلالة جديدةً من مادةٍ قديمة. ونُشِيرُ هُنا إلى نَوعَينِ مِنَ التناصّ الدِّينيّ شَكَّلَا مَرْكَزًا مِحْوَرِيًّا فِي قَصَائِدِ برهان الدّين العبوشيّ، أو في مَضمونها المطروح، وهما:

النّوعُ الأوّل: أفكار دينيّة إسلاميّة، وقد كانَ لها حُضُورٌ مَركَزِيّ في بَعْضِ الأَبْياتِ، يستعين الشَّاعِر فيها بآيةٍ (معنى أو تركيبًا)، أو بحديث، أو باسم له تاريخه الإسلاميّ، وهَامشيّ في بعض الأبيات الأخرى، يُلمحُ الشَّاعِر فيها إلى ما أوردنا آنفًا.

النّوعُ الثّاني: أفكار متعلّقة بالتجربةِ الذاتيّة أو العامّة، وتَدورُ حَولَ الدِّياناتِ الأُخرى، وأهمّها المسيحيّة أو الأفكار التي تساقطت إلى علم الشَّاعِر من المِللِ والنِحلِ الأخرى، وهي نادرةٌ في شعره، حتى لا يكادُ يمثّلها إلا مثالان ضعيفا الدلالةِ، يجهد الباحثُ أفكارَهُ ويطوي النصّ حتى يصل إلى مُرادِ الشّاعرِ وربطه بتلك المِلل، ولذلك فقد استثنيتهما من الدراسةِ هنا.

وعَلى العُموم، تناصّ الفِكْر الدِّينيّ في الشّعر العربيّ عُمومًا، والحديث خُصوصًا مُتنوعٌ مُتَشَعَبٌ، بَعْضُهُ يُسْتَحْضَرُ، أو يُستوحَى مِنَ القُرآنِ الكريمِ، أو الحديث النبويّ الشريف، أو التاريخِ الإسلاميّ، أو واقعِ المسلمين في العصر، وأفكارهم الدينيّة المختلفة. وبَعْضُهُ الآخَر يُستَحْضَرُ، أو يُستوحَى مِن الفِكْرِ الصُّوفيّ والغَيْبِيّ، وبعضِ الكتب والكتابات الدينيّة الأخرى (الزعبي، ص66).

وسأشرعُ فيما يلي في تناولِ صور التناصّ الدينيّ في شعر برهان الدين العبوشيّ، ثمَّ التناص التاريخيّ الذي شكّل محورًا مهمًا من محاور شعر برهان الدين العبوشيّ في ديوان جنود السّماء.

أولًا: تناصّ شعر برهان الدين العبوشي مع القرآن الكريم:

يُقصدُ بالتّناصّ القُرآنيّ استحضار الشَّاعِر بعض الآيات القرآنيّة، أو الإشارة إليها، وتوظيفها في سياقات القصيدة، تعميقًا وإثراءً لرؤية فكريّة / فنيّة يراها، بشكل ينسجمُ مع النصّ. فقد كان القرآن ولا يزال باعثًا على حركة فكريّة ولغويّة وشعريّة ناشطة، تمثل رُكنًا

ركينًا في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، إذ أصبح مادةً للدرس اللغويّ، والشّعريّ، والثقافيّ، والاجتماعيّ، والدينيّ، والعلميّ، ومجالات المعرفة المختلفة.

تعالَقَتْ نُصوصُ بُرهان الدّين العبوشيّ كثيرًا مع النّصُوص القُرآنيّة؛ فَالجوّ العامُ الذي يعيشُ فيهِ، والحياةُ الدّينيّةُ والثّقافيّة السّائدة، ووضعُ بلادِهِ فلسطين، عواملُ تفرض عليه، بل على الجميعِ التأثر بالقرآنِ الكريمِ، حتّى إنّ النّصُوص القرآنيّة تبدو واضحَة في شِعره، لا يحتاجُ القارئ إلى كثيرِ جهدٍ لاستنباطها، وهي مُتفقةٌ إلى درجةٍ واضحةٍ مع نصوص القرآنِ معنىً وفكرًا. وهذا التأثير القرآنيّ العميقِ له جُذورُهُ، وله ممارساتُهُ العريضة قديمًا.

على أيةِ حال، تعدّدت أوجه هذا التّداخل في شعر العبوشيّ بشكلٍ ملحوظ، منها ما جاء، أو دار حول مفردةٍ قرآنيّة، ومنها ما دار حول تركيب أو أكثر، ومنها ما دار حول أسلوب، وغيرها. لنأخذ على ذلك بعض الأمثلة الدالةِ، لنتابع فيها فنيَّات التداخل في ديوان العبوشيّ جنود السّماء، وطبيعته.

التناصُّ مع مفردةٍ واحدة:

يقصدُ بتناص المفردة أنْ يَتَداخَلَ الشّاعر مع مفردةٍ واحدةٍ من القرآن الكريم فيذكرها، أو يلمح لها، ومن نماذج هذا التناصّ قولُ برهان الدين العبوشيِ(العبوشي، ص317):

فَهل بَعدَ النَّبيّ لنا نَبيٌّ وهَلْ بَعدَ الكتابِ نَرى زَبوراً
كتابُ اللهِ يَدعونا لِجِدٍّ و إيمانٍ، وأنْ نَزِنَ الأمورا
ويَدعُو أنْ نُعِدَّ لِكلِّ خَطبٍ سِلاحَ الحَقِّ نَشْحذُهُ مَريرا
ولا يَدعو إلى كَسَلٍ وغِشٍّ فهذا أَوْرثَ الدُّنيا ثُبورا

كانت القصيدة في المدرسة الإعداديّة المركزيّة التي درّس فيها ثلاثَ عَشرة سنة، وأحيل إلى التقاعدِ فيها، وهي من أقدمِ المدارس في العراقِ قاطبةً، حيث تأسّست عام 1927م، وتخرج فيها رجالٌ كبار، وساسةٌ، وعلماءُ العراق (العبوشي، ص315). وفي القصيدة يمدح الشّاعر المدرسة، ويصف شهرتَها، وشجاعة طلابها ورجالها، وفي أثناء ذلك يتحدَّثُ إلى طلابه مذكّرًا بتاريخ العرب، محفزًا ودافعًا إياهم إلى أهميّة التجهّز والاستعداد للجهادِ والقتال، وعدم التكاسل والغِشّ. وليقوي هذا الأخير، ويشجع طلبته وأصدقاءه وضيوفه على ضرورة الامتثال لأوامر الله تناص فيها مع قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ١٤ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥﴾ (سورة الفرقان، 13-15). فالآياتُ الكريماتُ تتحدّثُ في مَصيرِ الكافرين المكذبين الذين كذّبوا رسالة ربنا، فعندما يُلْقَوْنَ في جهنّم مصفدين، يكونُ دعاؤهم أن يقال: واثُبوراه (واهلاكاه)، أي: تعالَ يا ثُبور (هلاك) فهذا حينُكَ وزمانُك، عندها يقالُ لهم: لا تَدْعُواْ الهلاكَ فقط، بل ادعوا هلاكًا كثيرًا، إمّا لأنّ العذابَ أنواع وألوان، كلّ نوعٍ منها ثُبور لِشدّته وفظاعَتِهِ، أو لأنّهم كلَّما نَضُجَت جلودهم بُدِّلوا غَيْرَها، فلا غايةَ لهلاكهم (الزمخشريّ، ج3، 272).

والمقابلةُ بين البيت الأخير والآية تُشير إلى لفظةٍ مُشتركة هي (ثُبور)، ومعنى قريب يرمي إليه البيت الشعريّ، إذ يريدُ الشاعرُ أنّ يتجنب الشبابُ الكسل والغِشّ الذي أدّى في نهاية المطاف إلى أنْ يهلَكَ العالمَ، وتضيع البلاد، ويشرّدَ العباد، وليعمّق العبوشيّ المعنى أخذ أجود ما في الآيةِ من ألفاظ (ثُبور)، فالكسلُ والغِش سيؤدي في نهاية الأمر إلى الخسران العظيم. ولا يبدو لي مع هذا التناص أنّ النسق القرآنيّ قد تسلط على الشاعرِ، بل إنّ الشاعرَ قد استخدمَهُ بحرفيّة عاليةٍ، وفي المكانِ المناسبِ.

ومن ذلك أيضًا قوله(العبوشي، ص289):

فأينَ مصنعُكُم للحربِ إذْ أمَرَتْ بهِ السَّماءُ سلاحاً غيرَ مُنكسر

وقوله (العبوشي، ص319):

أعْدِدْ لهم والله يأمُرُنا به من قوّةٍ واسلكْ سبيلَ عِظاتِه

أو قوله (العبوشي، ص316):

ويدعو أن نُعِدَّ لكل خَطبٍ سلاحَ الحقَّ نشحذُهُ مَريراً

إذْ تناصّ فيها مع قولِهِ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ (الأنفال، 60).

فقد أشارت كلمةُ (مصنعكم)، أو (أعدِدْ)، أو (نُعِدّ) في الأبيات الآنفةِ الذّكر إلى هذه الآية الكريمة، هذا على مستوى التلاقي اللفظيّ، وهو ليس المقصود حسْب، بل المقصود أيضًا الإشارة إلى معنىً في الآيةِ يلتقي مع هدفِهِ.

يتحدّث العبوشي في أبياتِهِ السّابقة عن ضرورة الإعداد الجيّد، والتجهّز التام لمقابلةِ العدو الغاصِب، شرط أنْ يكونَ معها نيةٌ صادقةٌ، وعزيمةٌ مخلصة، مستمدةٌ من الله. وليقويَ المعنى، ويُضيف إليه شيئًا من معاني القوّة والاستمراريّة والثّبات والعمل الدؤوب، تَداخلَ مع الآية الكريمة التي يتحدّث فيها الله تعالى عن ضرورة الإعداد والتّجهُّز قَدْرَ الاستطاعة، وضرورة تَصنيع الآلات وتجهيزها: الخيل والسّلاح؛ لتكونَ قُوةً لنا على أعدائنا، يَرهبون بها جانبَنا، فلا يقتربوا منّا (النيسابوري، ج4، 369). وطغيانُ النسقِ القرآنيّ في الأبياتِ واضحٌ مؤثرٌ، حاصر عقلَ الشاعرِ، فلم يستطع الفرار من ذكرِهِ والتناصّ معه.

ولو أردنا عرض أمثلة الشّاعر في هذا الباب لاستنزف ذلك أوراق البحث كلّها، وعلى العموم، فنحن من هذه الأمثلة نلمَحُ أثر الألفاظ القرآنيّة في شعر العبوشيّ، وفي نفسيته، وتأثيرها في القارئ الذي سيضطر إلى الربط بين شعرهِ وألفاظِ القرآن الكريم، فيكتسي الشعر بذلك شيئاً من قداسةِ النّصِ الأصلِ، وهيبته. وفي هذا السياقِ يُمكنُ الحديث عن أثرِ النّسقِ المتسلطِ وهو القرآن هنا "وطغيانِ هذا النسقِ على ما عداهُ، عبر تجسّدهِ في النصّ الإبداعيّ، واتّخاذِ الشّعرِ وسيلةً وواسطةً لترسيخِ هذه الذهنيّةِ"(الغذامي، ص141) ، وهذا يَعني بالضرورةِ خُضوعَ الثقافةِ وخنوعِها لهذه السّلطويةِ، على عكسِ ما يرى عبد الله الغذاميّ في رحلة المعنى (الغذامي، البحث).

التناصّ التركيبيّ في شعر العبوشيّ:

يُقصدُ بالتّناص التركيبيّ هنا التّداخل مع أكثر من كلمةٍ في تركيب متقارب، سواء أتطابقا، أم لم يتطابقا، وقد ورد التناص التركيبيّ في ديوان العبوشيّ بشكل لافتٍ، ومنه قوله(العبوشي، ص291):

وليس لي مَنْ أرجّيهِ ليغفر لي سوى الذي سمَكَ الجوزا بلا عَمَدِ

فقد تناصّ فيه مع قولِهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ٢﴾(سورة الرعد، 2).

وقد ورد البيت في سياق قصيدته الموسومة بـ"يا ربّ"، الّتي قالها بمناسبةِ حَجّه عام 1974م، وفي البيت يشيرُ إلى الله الذي لا يرتجي أحدًا سواه، فهو القادر على الفعلِ والغفران، وليوطّن المعنى في نفسه الضعيفة الشكاكة اضطر أنْ يأتيَ بهذا التناصّ الذي يشيرُ إلى قوة الله وجبروتِهِ وعظمتِهِ، فهو الذي رفع السماء بغير عمدٍ ترونها (الزمخشري، ج3، ص 292) ولذا فأمرُ المغفرةِ أسهلُ وأيسرُ.

ومن ذلك قوله أيضًا (العبوشي، ص303):

لو ترى جنتي وفيها ورودي باسماتٌ سَمَونَ صفاً صفّا

فقد تناص مع قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ﴾ (الفجر، 22)، وفي الآيات وصفٌ للملائكة يوم القيامة، وكيفيّة اصطفافهم في السماوات كلّها، حيث ينزل ملائكة كلّ سماء فيصطفون صفًا بعد صف محدقين بالجنّ والإنس، وتحضر جهنّم لتعرض عليهم (الزمخشري، ج4، ص 755). ويبدو أنّ الشاعر هنا يشيرُ إلى طريقة التنظيم والترتيب، ولا يشيرُ إلى الموقف ذاته، أو إليهما معًا، ولمّا رأى فيهم تنظيمًا عجيبًا أشار إليهم في بيته، وهو يصف فيه بعض ورود حديقتِهِ.

وانظر أيضًا قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ (سورة الصّافات، 1)، وقوله تعالى: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفّٗا لَّقَدۡ جِئۡتُمُونَا كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةِۭۚ بَلۡ زَعَمۡتُمۡ أَلَّن نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾ (سورة الكهف 48). وقوله تعالى: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ (طه، 64). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ (الصف، 4). وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ (النبأ، 38). إذ قد يكونُ أخذ تناصه من إحدى هذه الآيات الكريمات.

ومنه أيضًا قولُهُ (العبوشي، ص304):

إنّ لي في جِنينَ وَرداً نَضيرا صَيَّرتْهُ صُهيونُ أبًّا وعَصفا

الذي تناصّ فيه مع قولِهِ تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا 25 ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا 26 فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا 27 وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا 28 وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا 29 وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا 30 وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا 31 مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ 32﴾(عبس، 25-32).

ففي هذه الآيات ذِكْرُ من ينفعه الإنذار، ومن لم ينفعه الإنذار، وهم الذين كان رسول الله ﷺ يناجيهم في أمر الإسلام: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، وأبيّ، وأميّة، ويدعوهم إليه (أبو حيان الأندلسيّ، ج8، ص 320). وفعلًا وُفّق العبوشي هنا في هذا التداخل، فهو يتحدّث في كيفيّة تخريب الصّهاينة لحديقتِهِ- وطنه، وليُعمّق دلالة الصّورة البشعة في البيت ومن ثمّ القصيدة، قرَّبها بذكر بعض أعداء الإسلام الذين طمّعهم الرسول الكريم بالجنةِ ونعيمها لكنّهم رفضوا ذلك، وهذا حالُ اليهودُ الغاصبين الحاقدين المخربين، لم يكتفوا بأنْ لم يؤمنوا بالله ربًّا، وبمحمدٍ رسوله، بل أخذتهم العزّةُ بالإثمِ، فراحوا يخربون ما في أرض الفلسطينيين الضعفاء من حدائق، حقدًا وكرهًا ليس إلا.

التناصّ التركيبيّ المزدوج في شعر برهان العبوشيّ:

ويُقصدُ به التداخل مع أكثر من تركيب متقارب، وقد ضَعُفَ التناصّ التركيبيّ المزدوج في ديوان جنود السّماء، ضعفًا ملحوظًا، حتى إنّي لم أجد له إلا بعضَ صُور، منها قولهُ (العبوشي، ص291):

أزورُ مكةَ والبيتَ العتيقَ عسى تفرّجُ الكربَ عن قومي وعن كبدي

وأحتفي برسولٍ أنت باعثهُ لهدي النّاسَ للإيمانِ والجدد

فقد تناصّ فيه مع قوله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ 27 لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ 28 ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ 29﴾ (سورة الحج، 27-29).

وفيها يتحدّث الله عن موسم الحجّ الذي يعلنُ فيُؤتى له وينادى فيقال -كما قال رسول الله ﷺ: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم، فيلبون النداء راجلين راكبين، ليذكروا الله ويشهدوا منافع لهم مختصة بهذه العبادة الدينية؛ إذ لما حج فضل الحج على العبادات كلها لما شاهد من تلك الخصائص، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نَحروا أو ذَبحوا (انظر، أبو حيان الأندلسي، ج6، ص 345).

وقريبٌ من هذا قوله (العبوشي، ص 295):

إله الكعبة الغرّاء إنّي قصدتُ نداك، قصد المستهامِ

كما تناص مع قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ 128﴾(التوبة، 128). التي يُشيرُ فيها الله تعالى إلى النعمةِ (محمد) فبعد ما بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين، وقص فيها أحوال المنافقين شيئًا فشيئًا، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم، أو من نسبهم، عربي قرشي يبلغهم عن الله، متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب، ويحرص على هداهم، ويرأف بهم، ويرحمهم. قال ابن عباس: ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي صلى الله عليه وسلّم، فكأنه قال: يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل، ويحتمل أن يكون الخطاب لمن بحضرته من أهل الملل والنحل، ويحتمل أن يكون خطابًا لبني آدم، والمعنى: أنه لم يكن من غير جنس بني آدم، لما في ذلك من التنافر بين الأجناس (انظر، أبو حيان الأندلسي، ج5، ص 113).

كما تناصَّ مَعَ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ 257 ﴾(البقرة، 257).

وفي هذه الآيات يعلن الله تعالى أنّه ولي وناصر ومعين المؤمنين الذين أنعم عليهم أنْ أخرجهم من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان، بعكسِ الكافرين الذين يتولاهم الشيطان فيخرجهم من النور إلى الظلمات، ولذلك سيكونُ عقابهم جهنم خالدين فيها. والإخراج هنا إن كان حقيقة، فيكون مختصًا بمن كان كافراً ثم آمن، وإن كان مجازًا، فهو مجاز عن منع الله إياهم من دخولهم في الظلمات قال الحسن: معنى يخرجهم يمنعهم، وإن لم يدخلوا، والمعنى أنّه لو خلا عن توفيق الله لوقع في الظلمات، فصار توفيقه سببًا لدفع تلك الظلمة (انظر، أبو حيان الأندلسي، ج2، ص 272).

وفي الأبيات الشّعريّة يَستعرِضُ العبوشيّ رغبته في أنْ يغفر له، بعد أن قصد مكة يبغي حجًا، ويستعرض بعض ما رأى من عظمةِ المكان، ليستحضر عظمة خالقه الذي يتمنى أنْ يغفر له ذنوبه، وأنْ يهديه إلى طريق الحقّ والنور، وأنْ يتولاه، وليقول ذلك كله مرة واحدة، جاء بهذا التداخل المُركّب الذي خدم غرضه، فحوّل شعره إلى فسيفسائيةٍ تتكوّنُ من قطع جميلةٍ، بعضها من هنا، وبعضها الآخر من هناك.

ومن ذلك أيضًا تناصّه في قولِهِ (العبوشي، ص299):

تركتهما وليس عليَّ دَيْنٌ فإنَّ الدَّينَ ذلٌ للمَدينِ

سوى دينِ الإلهِ فعفو ربي لأقربُ فيهِ من حبلِ الوتينِ

فقد تناصّ هذان البيتان مع قولهِ سبحانه وتعالى:﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ 43 وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ 44 لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ 45 ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ 46 فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ 47 وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ48﴾ (الحاقة، 43-48).

وقد ورد البيت في سياق قصيدته الموسومة بـيا رب التي قالها بمناسبةِ حَجّه عام 1974م، وسبب نزول الآيات الكريمات التي يريدها الشاعر ويلمحُ إليها أنّ الوليد قال: إن محمدًا ساحر، وقال أبو جهل: شاعر، وقال: كاهن. فردّ الله عليهم، بأنْ لو كانَ فعلَ لفعلنا به ما ذكرت الآيات، وفي ذلك نفي منه تعالى، أن يكون قول شاعر لمباينته لضروب الشعر، ولا قول كاهن؛ لأنه ورد بسبب الشَّياطين، أيْ لَيْسَ

بقولٍ بَشَرٍ في أساسه (أبو حيان الأندلسي، ج8، ص 246 - 247).

كما أنّ في البيتين إشارة إلى قولهِ تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ 186﴾(البقرة، 186).

وهذه الآيةُ قد نزلت كما قيلَ في اليهود الذين قالوا: أقريبٌ ربُّنا فنناجيه، أمْ بَعيدٌ فنُناديه. فبيَّن أنّه مُطَّلِعٌ على ذِكر مَنْ ذَكَرَهُ، وشُكرِ من شَكَرَهُ، يَسمع نداءه ويجيب دعاءه أو رغبة، تنبيهًا على أن يكون ولا بد مسبوقًا بالثناء الجميل.

وقد تداخل معها الشاعر ليقولَ إنّ الله عفوّ، كريمٌ، من السّهل اليسيرِ عنده أنْ يعفوَ عنّي، فهو قريب إليَّ، وليؤكّد هذا المعنى تداخل مع الآيات الكريمات. وما يلفتُ النظرُ أنّ في هذا التناصّ أنّ بَعْضَ أجزائِهِ قَدْ جاءَتْ في ذِكْرِ اليهودِ الذين يمتازونَ بالجدل وكثرة النقاش والحوار، فكأنّ فيها تلميحًا إلى تناقضِ تصرفاتهم، ومخالفتها لأصل العبادةِ النقيّةِ الطاهرةِ الخاضعة القارّة في النفس.

ومنه أيضًا قولُهُ في قصيدة الأقصى الحريق(العبوشي، ص313):

صوموا ضِعافاً ثُمّ صلّوا خِفيةً واسْتَقسِموا بكرامةِ الأزلامِ

لستُم من الإسلامِ في شيءٍ، وإنْ كنتُم فأنتم سُبَّةُ الإسلامِ

إذ يَصِفُ العبوشيّ في البيتِ حالَ العربِ الذين حُرِق المسجد الأقصى في ضلِّ صمتهم القاتل، وردةِ فعلهم الكئيبة المُخزية، لذلك يدعوهم في البيتِ إلى أنْ يبقوا على حالهم، أنْ لا يتعبدوا العبادة التي نعرفها:

من إقبالٍ على الصّلاةِ نَشط، استهزاءً بهم، وتقليلًا من هَيبتهم، وقلّةِ حيلتهم، وخيانتهم، ونِفاقِهم، فَهُم في هذا الشّأنِ كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا 142﴾(النساء، 142) ، أو قولهِ تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ54﴾(التوبة، 54).

أو من إقبالٍ على الصّيام، بقوّةٍ، وبنيّةٍ، وعزيمة صادقتين استهزاءً بهم أيضًا؛ لأنّهم ضُعفاء، فكأنّهم ممّن قالَ فيهم تَعالى: ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ 184﴾ (البقرة، 184).

التَّناص الضديّ في شعربرهان الدين العبوشيّ:

ويُقصدُ به التداخل بشكل ضديٍّ مع نصٍّ سابق (القرآن الكريم). وقد ورد في ديوان برهان الذين العبوشيّ شيء من التناص الضدي وإنْ بشكله البسيط، ومن ذلك قوله(العبوشي، ص321):

زحفًا جميعًا ولسنا فُرادى فكل العراق أخٌ وابن عمْ

فقد تناصّ فيه مع قولهِ تعالى: ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ 14﴾(الحشر، 14).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ 4﴾(الصف، 4).

فالشّاعر يتحدّثُ في هذا البيت من قصيدته عن دعوته العراقيين للزّحفِ المقدس إلى فلسطين؛ لتحرير أرضها من الغاصب الصهيونيّ، ولا يرى أنّ العراقي غريب، فهو صاحبها، وليؤكّد المعنى في نفوس السامعين أتى بالتداخل الضّدي مع الآية الكريمة التي يشير فيها ربُّنا إلى الطريقة التي يقاتل بها اليهود، وفي ذلك إشارة مزدوجة، الأولى إلى ضعفهم وخوفهم وجبنهم وقلّة حيلتهم، والثانية إلى شجاعةِ العراقيين والعرب والمسلمين. وفي ذلك حضٌّ وتشجيع على القتال، وربط له بالقرآن الكريم. فالعبوشي وقومه يقاتلون جميعاً (ولسنا فُرادى) أما اليهود المشار إليهم في الآيةِ فـ﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا﴾.

التناصّ مع القصص القرآنيّ في شعربرهان الدين العبوشيّ:

ويقصدُ به أنْ يتداخل الشاعر مع قصةٍ قرآنيّة، تناصّ ديوان جنود السماء مع عدد من القصص القرآنيّ، ومن ذلك قولهُ (العبوشي، ص294):

إني دعوتُكَ من أرضٍ دعاكَ بها أبو النبيين (إبراهيمُ) للولدِ

وقد حَججنا وضحَّينا ضحيتَهُ وقد رفَقْتَ بإسماعيل حيثُ فُدِي

ونحنُ أبناؤه فاجعلْ ضحيَتَه فداءَنا وانْصُرِ الإسلامَ يا سَندي

أو قوله (العبوشي، ص297):

إذا أقبل العبدُ المنيبُ بقلبِهِ رأى الله جاراً إنْ رآهُ تعبّدا

ففجّر ربّ البيتِ زمزمَ لابنِها وأكرمَها من بعدُ عِزًّا ومَحتدا

إذْ إنّه تناصّ مع قولِهِ تعالى ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ 100 فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ 101 فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ 102 فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ 103 وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ 104 قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ 105 إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ 106 وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ 107 وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ 108 سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ 109 كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ 110﴾(الصافات، 100-110).

فَفي الأبياتِ إشارةٌ واضحةٌ إلى الآيات الكريمات، إذ يتحدثُ فيها الله تعالى في سيّدنا إبراهيم لما سلمه من النار التي ألقي فيها، فقد عزم على مفارقة قومه، إلى أرض الشام، ليتمكن من عبادة ربه، والتضرع له من غير أن يلقى من يشوش عليه، فهاجر من أرض بابل، من مملكة نمرود، إلى الشام. فدعا هناك أنْ يهبه الله ولدًا صالحًا، فبشره الله، واشتملت البشارة على ذكورية المولود وبلوغه سن الحلم، فوُلِدَ له وشَبَّ. وصار يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه. عندها أمره الله في منامه، أنْ يذبحه، فأقرَّه، فهَمَّ بِنَحرة، إلا أنّ الله شاء أنْ يعفوَ، ففدّاه بذِبحٍ عظيم (أبو حيان الأندلسي، ج7، ص 367 - 368).

وهذه القصيدة هي تلك التي يَصفُ فيها بيت الله في حجّه، ويستذكر في أثناء هذا مواقف كثيرة ربما رآها في حجه، ومنها هذه الأماكن التي تشيرُ إلى الحادثة أو الأفعال التي تشير إليها، مثل: يوم التروية، ويوم النحرِ، ويوم عرفه... وما وجد سبيلًا غير أن يتناصّ مع هذه القصة الرائعة التي تصفُ وصفًا دقيقًا كثيرًا من أعمال الحج، خاصّة هذا العمل الذي يذكر بضرورةِ الانقياد لأمرِ الله، والاستسلامِ له، وعلّهُ بهذا يريدُ أنْ يلمِحَ إلى تخاذلِ المسلمين عن إطاعةِ اللهِ خاصّة في أمرِ الجِهادِ لتحرير الأقصى الأسير.

كما تناصّ مع قصّة سيدنا محمد في رحلة إسرائهِ، وذلك في قوله (العبوشي، ص313):

واللهُ خصّكمُ بأقدسِ سِرّهِ وحباكم من فضلِهِ بوسامِ

فخَفَرتُم عهدَ الإلهِ ولم تفوا فرجعتم بالسُّخطِ والآثامِ

إنّي لأخشى أنْ تُهدمَ يثربٌ ويعودُ سادتُها من الأصنامِ

اللهُ قد أسرى إليهِ بعبدِهِ ليمدّهُ بالنورِ والإلهامِ

أو قوله(العبوشي، ص302):

وعلمتُ بأني عائدٌ والنصرُ رايتُهُ تلوحُ

وعلمتُ أنّ محمداً في القدسِ هنّأهُ المسيحُ

ورأيتُ صرحاً شامخاً في عَدَنْ تكسوهُ المُسوحُ

وذلك في قولِهِ تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ 1 وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِي وَكِيلًا 2 ﴾(الإسراء، 1-2).

وفي تَفْسيرِها يَقُولُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: بينا أنا في المسجد الحرام في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتاني جبريل بالبراق، فأسري به ورجع من ليلته، فقص القصة على قريش، فتعجبوا منه استحالة، وارتد ناس ممن آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقال: إن كان قال لقد صدق. فقالوا أتصدقه على ذلك، قال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك. واستنعته طائفة سافروا إلى بيت المقدس، فجُلِّيَ له فطفق ينظر إليه وينعته لهم فقالوا أما النعت فقد أصاب فقالوا أخبرنا عن عيرنا فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها وقال تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس يقدمها جمل أورق فخرجوا يشتدون إلى الثنية فصادفوا العير كما أخبر، ثم لم يؤمنوا وقالوا: ما هذا إلا سحر مبين وكان ذلك قبل الهجرة بسنة (البيضاوي، ج3، ص 429) وما أتى الشَّاعر بهذا التناصّ إلا ليؤكّد ضرورة التيقّن من عودةِ الأقصى وفلسطين لأصحابها العرب والمسلمين، فكما التقى فيها محمد ﷺ المسيح عليه السلام أيامَ احتلالها من الرّوم، سيلتقيه مرّةً أخرى في القدسِ، ولكن هذه المرّة مع التهنئة بعد استرجاعِها من اليهودِ الغاصبين الحاقدين.

ومن ذلك أخيراً قولُه(العبوشي، ص297):

إذا أقبل العبدُ المنيبُ بقلبِهِ رأى الله جاراً إنْ رآهُ تعبّدا

....

وأيوبُ إذ نادى فلبّى نداءَه ومن يَرْجُ سِترَ الله في ضيقِهِ ارتدى

فقد تداخلُ فيها مع قصّةِ سيدنا أيوب في قوله تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ 83 فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ 84﴾(الأنبياء، 84).

وفي الآيات يخبرُ ربُّ العزّةِ كيف ناداهُ أيوب عليه السلام وأخبره بأنّ الضرَّ قد مسّهُ وناله في بَدَنِه، ومالهِ وأهله. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سُمِّيَ أَيُّوبُ لِأَنَّهُ آبَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ حَالٍ. وَرُوِيَ أَنَّ أَيُّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ رَجُلًا مِنَ الرُّومِ ذَا مَالٍ عَظِيمٍ، وَكَانَ بَرًّا تَقِيًّا رَحِيمًا بِالْمَسَاكِينِ، يَكْفُلُ الْأَيْتَامَ وَالْأَرَامِلَ، وَيُكْرِمُ الضَّيْفَ، وَيُبَلِّغُ ابْنَ السَّبِيلِ، شَاكِرًا لِأَنْعُمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ دَخَلَ مَعَ قَوْمِهِ عَلَى جَبَّارٍ عَظِيمٍ فَخَاطَبُوهُ فِي أَمْرٍ، فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَلِينُ لَهُ فِي الْقَوْلِ لِرَزْعٍ كَانَ لَهُ فَامْتَحَنَهُ اللَّهُ بِذَهَابِ مَالِهِ وَأَهْلِهِ، وَبِالضُّرِّ فِي جِسْمِهِ حَتَّى تَنَاثَرَ لَحْمُهُ وَتَدَوَّدَ جِسْمُهُ، حَتَّى أَخْرَجَهُ أَهْلُ قَرْيَتِهِ إِلَى خَارِجِ الْقَرْيَةِ، وَكَانَتِ امْرَأَتُهُ تَخْدُمُهُ. وقد مَكَثَ بِذَلِكَ تِسْعَ سِنِينَ وَسِتَّةَ أَشْهُرٍ. فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بارِدٌ وَشَرابٌ﴾ فِيهِ شِفَاؤُكَ، وَقَدْ وَهَبْتُ لَكَ أَهْلَكَ وَمَالَكَ وَوَلَدَكَ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ فِي الجنة (القرطبي، ج11، ص 233 - 235).

وليُقرب الشّاعر شدّةَ إخلاصِهِ في عبادتِهِ، ورغبتِهِ الشديدة في التقرب إلى الله، لم يجد وسيلة خيرًا من امتصاص معنى الآية القرآنيّة التي عرضنا، فهي تحمل المعاني التي يريدها، وربما أكثر.

أمّا بقيةُ ألوان التناص فقد اضمحلت حتّى اختفت في ديوان جنود السّماء، فقد ضعف فيه مثلًا التناصّ الأسلوبيّ، الذي انتشر بشكلٍ لافت في الصفحات الأولى من الديوان، حيثُ كان الشاعر يحاول أنْ يصوغَ سور القرآن شعرًا حيث بدأ بالفرقان ثمّ الفاتحة وانتهى بالناسِ. وفي ذلك يقول: " كانَ أوله تضمين شعريّ على وزنِ واحدٍ لأسماءِ سورِ (القرآن الكريم)، وكنتُ أظنُّ أنّ أحدًا لم يسبقني إلى ما عَزَمتُ عليه، وتبيَّنَ لي بعد ذلك أنَّ أحدَ أدباءِ الفترةِ المظلمةِ***** قد سبقني بنظمِ السور الكريمةِ بقافيةٍ مُختلفةٍ على غِرارِ ألفيةِ ابن مالك في النحوِ، علمتُ ذلك من الأديبِ الكبيرِ الأستاذِ محمد بهجت الأثريّ." (العبوشي، ص275).

ومنها على سبيل المثال أيضًا قوله (العبوشي، ص286):

أعوذُ بخالقٍ صبيحاً	بربِّ الناسِ والأكوانِ طُرًّا
من الشيطانِ إنساناً وجناً	مفرِّ أمةِ الإسلامِ شَذْرا
فبرهانُ ليرجو الله نصرا	على الأعداءِ ويرجو منه أجرا
وأسأله تعالى العفو عنّا	إذا مِتنا وعاد الكونُ قبرا

فهو يحاول هنا أنْ يأخذ شيئاً من أسلوب سورتيّ الفلق والناس، وقد جانبه -إنْ كانَ يقصدُ ذلك- التَّوفيق إلى حَدٍّ بَعيدٍ.

كما حاول ذلك في قوله(العبوشي، ص286):

وأعطى كوثراً بجهادِ حقٍّ	وأخزى الكافرين فكان نصرا

ليتداخل مع أسلوب سورة الكوثر لكن يبقى للقرآن وأسلوبه طعم آخر قد اختفى من ها هُنا.

كما ضعف فيه كثيراً التناصّ غير المباشر مع القرآن، الذي يوحي بالفكرةِ دونَ التصريحِ بها أو الإشارةِ إلى النصّ الذي يَحْمِلها، حيثُ يُجهَدُ القارئ في البحث عن مصدره.

وأخيرًا، إذا أردتَ أنْ ترى التناص في أبهى صورةٍ عند العبوشيّ، حسب المنهج الذي اتبعهُ فاقرأ له قصيدته اللهُ جلَّ جلالُهُ التي يقولُ في مطلعها (العبوشي، ص314):

الله مولانا أحدْ	رفع السَّماءَ بلا عمدْ	
مُتنزّهٌ سبحانَهُ	عن كلّ أمٍّ أو ولدْ	
صمدٌ تكفَّلَ خَلقُهُ	بالرزقِ أعظِم بالصَّمدْ	

فتداخل الأبيات مثلًا لا يحتاج أي تعليقٍ، فواضح أنّه يتناصّ مع آياتٍ كثيرات في الوقت ذاتِهِ ليظهرَ جانبًا من عظمةِ خالقِهِ.

وبهذا، أستطيع أنْ أقولَ إنّ التداخل مع النص القرآني في ديوان جنود السماء قد جاء متلوّنًا متنوعًا، وذلك حَسْبَ الحالةِ الشُّعوريّة التي يرزخُ الشّاعر تحت ضغطها، أو الموقف الذي يريدُ أنْ يكثف الدلالة فيه، فإنْ هو أراد دلالةً محدّدة كان يتناصّ مع مفردةٍ قرآنيّة بارزة أو فكرة واضحة، وإنْ أراد أكثر من ذلك كان يتناصّ مع مجموعة كلمات وأساليب، وإنْ أراد تكثيف الدّلالة إلى أقصى حدودها كان يتناصّ مع قصّة قرآنيّة، مع أخذ كثافةِ وعدد التناصات بعين الاعتبار.

ثانيًا: المصادر الثقافيّة الحديثيّة:

استعانَ العبوشيّ بالحديثِ الشَّريفِ مصدرًا مهمًا لثقافته، كما استعانَ بالقرآنِ الكريمِ وإنْ كانَ ذلك بِصورة أقلّ. إذ إنّ المقابلةَ بينهما تشير إلى أنّ تكرار الحديث كان هامشيّاً؛ فكلّ خمسين آية في شعر العبوشي يقابلها، على نحو التقريب، حديثٌ واحدٌ. وربّما يعود السبب في ذلك إلى تعمقّ دراسته للقرآن وحفظهِ، وعدم دراسته للحديثِ. إذْ إنَّ الحديثَ لم يأخذ بَعْدُ المكانةَ التي يستعينُ بها الشعراء والناسُ لتوصيل غاياتهم نظراً لقلةِ حفظتِهِ مقابلة مع القرآن، فالدين لم يشجع على حفظه.

وظَّفَ العَبوشيّ الحديث النبويّ الشريفَ في شعرهِ، ولكن – كما قلنا – بكمياتٍ قليلةٍ جدًّا. فقد استفاد من الحديث النبويّ الشريفِ قدر استطاعتِهِ، لإدراكه قيمتهُ الدلاليّة، وأنّ انفتاح القصيدةِ عموماً على الموروثِ بمُختلفِ أشكالِهِ يُعطيها قوّةَ حضور وخلود، فالحديثُ مصدر من مصادر صيانةِ التراثِ والحفاظ عليهِ، في الوقت الذي يعطيها التراث وسيلة شرعيّة يمكنُ من خلالها الوصول إلى مرحلة الإبداعِ. ومن تناصّاته مع الحديث النَّبويّ الشّريفِ قوله (العبوشي، ص316):

إله العرشِ نَعبدُهُ جميعاً	ومِنْه نَقبس المَعنى الكبيرا
ولكنّ الشياطينَ استغلت	فما بالُ الكبير غدا صغيرا
رسولُ الله يدعو للتآخي	ليبقى الكونُ معموراً قريرا
فهل بعد النبيّ لنا نبيٌّ	وهل بعد الكتابِ نرى زبورا

فهو يُشيرُ بذلك إلى حادثةِ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث وَآخَى رَسُولُ اللّهِ r بَيْنَ أَصْحَابِهِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَقَالَ - فِيمَا بَلَغَنَا، وَنَعُوذُ بِاَللّهِ أَنْ نَقُولَ عَلَيْهِ مَا لَمْ يُقَلْ -: تَآخَوْا فِي اللّهِ أَخَوَيْنِ أَخَوَيْنِ ثُمّ أَخَذَ بِيَدِ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ هَذَا أَخِي فَكَانَ رَسُولُ اللّهِ سَيّدَ الْمُرْسَلِينَ وَإِمَامَ الْمُتّقِينَ وَرَسُولَ رَبّ الْعَالَمِينَ الّذِي لَيْسَ لَهُ خَطِيرٌ وَلَا نَظِيرٌ مِنْ الْعِبَادِ وَعَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أَخَوَيْنِ وَكَانَ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطّلِبِ، أَسَدُ اللّهِ وَأَسَدُ رَسُولِهِ r وَعَمّ رَسُولِ اللّهِ r وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ، مَوْلَى رَسُولِ اللّهِ r أَخَوَيْنِ وَإِلَيْهِ أَوْصَى حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ حَيْنَ حَضَرَهُ الْقِتَالُ إنْ حَدَثَ بِهِ حَادِثُ الْمَوْتِ وَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ذُو الْجَنَاحَيْنِ الطّيّارُ فِي الْجَنّةِ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَخُو بَنِي سَلَمَةَ، أَخَوَيْنِ (ابن هشام، ص 504 - 505.).

وقد ذكرها الشاعر ليُشعر المخاطبين في الإعدادية المركزيّة بأهمية هذا العمل، وأنّه جُزْءٌ من الدِّين، لذلك ذكَّرهم بما كانَ من الرَّسول ﷺ وصحبه، وبما أنّه قدوتهم فإنّ عليهم الاقتداء به، وتكرار فعله، والحفاظ على روح الأخوّة.

ومن هذه التناصات قوله أيضًا (العبوشي، ص322):

تغلغل في قلبي النّدي حُبُّ أحمدِ	فجِرتُ بأي اللفظِ أمدحُ سيدي
وماذا ترى أجزي الذي وُدّدَ اسمُهُ	مع اسمِ إله الكونِ عندَ التّشهُدِ
لقد غنت الورقاء شوقاً لذكره	وعَيشِ الفلا، حنّتْ وهامت بأحمدِ

إذْ تناصّ مع ما رواه عبد الرَّحمن بن عبد الله عن أبيه، قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرةً (الحُمَّرَةُ طائر) مَعَها فرخان فأخذنا فَرْخَيها، فجاءت الحمرة، فَجَعَلتْ تَفْرِشُ (أي ترفرف)، فجاء النبي ﷺ فقال: "مَنْ فَجَعَ هذه بولدِها؟ رُدّوا وَلَدَها إليها" (أبو داود، ج2، ص 61).

ففي القصيدة الموسومة بـ "رسول الله البطل الخالد" يتحدث الشاعر عن البنيّ صلى الله عليه وسلم ومن ثمّ لمّا أراد الشاعر أنْ يظهر مدى رقته r وعطفه، مزج شعره مع هذه الحادثةِ العظيمة التي تظهرُ ما أراد الشاعر.

وبهذا، نَلحظ أنَّ تناصَّ جنود السّماء مع الحديث النبويّ الشريف يتميّزُ على الأغلبِ بأنّه جاء من النوع المباشر، ولكنّه من ذلك الصنف الذي يحتاجُ إلى جهدٍ في التنقيب والبحث لمَعْرفةِ مصدره الثقافيّ، ومِن ثَمّ الحديث المتناصّ معهُ. فتناصّه لا يدخل ضمن ما يُمكن أنْ يسمى تناصّ الاقتباس، بل تناصّ الاستمداد الذي يتيح للمبدع إحداث انزياح في أماكن محددة من خطابه الشعريّ، بهدف إفساح المجال لشيء من القرآن الكريم (انظر، عبد المطلب، ص 163). ولا نستطيع بدقة في هذه الدراسة أو حتّى في أيّ دراسةٍ غيرها دراسة هذا الصِّنف من التناصّ بدقة وحصره، ذلك أنّه يستعين ببعض العناصر الرُّوحَانِيَّةِ والقدسيّة.

وأخيرًا، نرى كيف أنَّ آلياتِ التناصّ مع الحديثِ النبويّ الشريف عند برهان الدين العبوشي كانت ضعيفةً لم تتلون، كما تناصّه مع القرآن الكريم، ورغم ذلك، فهذا يجعلنا نرى في ديوانِهِ إحلالاتٍ لغويّة ومعنويّة متنوّعة تدلُّ على ثقافةِ برهان الدين العبوشي الدينيّة واللغويّة، واتساع مداها وتراكمها (انظر، عبد المطلب، ص 163).

ثالثًا: المصادر الثقافية التاريخيّة في شِعر العبوشيّ:

نستطيعُ استخراج مصادر الشاعر التاريخيّة باستنباط تناصاتِهِ التاريخيّة، ونَعني بالتناصّ التاريخيّ تداخُلُ نُصوصٍ تاريخيّة مختارة ومنتقاة مع النصّ الشّعريّ المقروء، تَبْدُو مناسبة ومُنسجمة لدى المؤلّف أو القارئ مع السيّاق الشعريّ الذي يرصده، وتؤدي غرضًا فكريًّا أو فنيًّا أو كليهما معًا (الزعبي، ص25). ويكونُ ذلك بأشكال متنوعة لإيراد اسم من الماضي، أو استحضار "الأحداث والشخصيات التاريخيّة التي تركت بصمات واضحة في ذاكرةِ الإنسان، فيقيم التفاعل النصيّ على التحاور بين الماضي والحاضر، متخذًا أشكالًا عدّة" (الصمادي، ص 243). والشّاعر حينَ يتناصّ مع أحداثٍ أو شُخوص يستحضرها من التاريخ إنّما يمثل دور المتجاهل الذي يروي مجرد أحداث غابرةٍ، لكنّ القارئ الواعي الفذّ يستطيع إقامةَ خيوط التواصل بين النّصُوص المتداخلةِ ليصل إلى إشارات صانعِ التناصّ، لتمسي الضحيّة ليست مجرد حدثٍ أو شَخصيّة تاريخيّة حاضرةٍ بقدر ما هي شخصيّة واقعيّة يُعْمِل فيها الكاتب مِعول الهدم والتشويه" (جابر، ص 216) ، أو إزميل التَّزيين والتَّجميل.

والشّاعر في تناصّه لا يعنيه تسجيل تاريخ قديمٍ لإحيائه، إنّما يعنيه في المقامِ الأوّل أنْ يعبّر عن ذاته وواقعه بهذا التاريخ. ولهذا فكلّ شخصيّة تاريخيّة أو حدث تاريخيّ عابر له مقابله في الواقعِ الرّاهن المَعيش. والقارئ الواعي هو وَحده القادر على إعادةِ إنتاجِ الماضي بما يتساوق والحاضر(يوسف، ص 217). فهذا يتيح التّناصّ التاريخيّ للشاعر أنْ يمتلك حريته التامّة في تكثيف الدّلالة التي يُريد تسليط الضَّوء عليها، كما يُتيحُ له "أنْ يمتلكَ حُريّته التامّة في قول ما يَشاء على ألْسِنَةِ الآخرين، بحجةِ أنّه يتحدّث عن شخصيات تاريخيّة " (يوسف، ص 217).

وينقسم التناصّ التاريخيّ إلى قسمين مباشر وغير مباشر، ويكونُ المباشر بذكر الحادثةِ التاريخيّةِ باسمها مباشرةً دونَ مواربةٍ أو تغطيةٍ، ويكونُ غير المباشر بذكر شيء من أحداثها أو أبطالها دون التصريح مباشرةً باسمها. وقد جاء ديوان جنود السّماء زاخرًا بالتناصّاتِ التاريخيّةِ؛ ولذا يظهر النصّ عند العبوشي -كما قالت جوليا كريستيفا- لوحةً فسيفسائيّة من الاقتباسات والتضمينات (الغذاميّ، ص 326) التاريخيّة، ليبدو النصّ مُحَمّلًا اللغة بُعدها التراثيّ، ويظهر الشاعر بذلك وكأنّه يريد أنْ يقدّم قراءةً أخرى للتاريخِ وأبطاله تتناسب مع مواقفهم ورؤيتهم، إذْ إنّ هذه الحوادث وأولئك الأشخاص يعملون معًا على تشكيل علاقةٍ جدليّة بين الحادث التاريخيّ الماضي، وبين الموقف التاريخيّ الحاضر، فالحاضر امتداد لذلك الماضي الغائب.

تتداخل التجربةُ الشعريّة للعبوشيّ مع النّصّ التاريخيّ فيستحضر في كثير من الأحيان الأحداث التارخيّة، أو شخصياتها التي تركت أثرًا واضحًا في الذاكرةِ العربيّةِ. وقد انقسمت تداخلات العبوشيّ مع الحوادث التاريخيّة إلى ثلاثةِ أقسام، هي: التداخل مع حوادث الأمم السّابقةِ القديمة، مثل: عاد وقحطان، والتداخل مع الحوادث الجاهليّة وأيام العرب فيها، والتداخل مَع الحوادث الإسلاميّة. وبالطريقةِ ذاتها تناصّ مع الشَّخصيات التي قام بذكرها للدلالةِ في كثير من الأحيان على بعض تلك الأحداث التاريخيّة. وعلى ذلك فقد اتّخذ التناصّ التاريخيّ شكلينِ رئيسيينِ، هما: استحضار الحدث التاريخيّ، واستحضار الشّخصيّة التاريخيّة.

وسنناقش فيما يلي بعض هذه النماذج التي نظنُّ أنّها على درجة من الأهميّةِ أكثر من غَيْرِهَا. وسنحاول الكشف عن دلالات هذه التناصّات شكلاً ومضموناً، وعلاقاتها الظاهرة والخفيّة مع السياق الشعريّ ومجريات الأحداث. ويبيّن الجدول الآتي تداخل نصوص العبوشيّ الشِّعريّة في ديوانه جنود السّماء مع بعض الأسماء التراثيّة والمعاصرةِ، كما يُبيّن تداخل بعض الحوادث التاريخيّة القديمةِ والحديثة مع نصّه الشعريّ. وهذا يشيرُ إلى عُمقِ تجربةِ الشّاعر وثقافته، من جهةٍ، وإلى طبيعتها النوعيّة من جهةٍ أخرى. ويظهرُ الجدول الآتي التناصات التي وردت في ديوان جنود السماء للعبوشيّ، وهي:

الأحداث التاريخيّة		الأسماء		الأسماء	
الحدث	الصفحة	الاسم	الصفحة	الاسم	الصفحة
بناء سد الصين	288	خالد	287، 292، 292، 293، 305، 322		
بدر	288، 289، 292	صلاح الدين	287، 309	عَدْن/رضوان	302، 305
حطين	289، 311	عاشق طيّء	292	محمد/النبيّ r	316، 322
الإسراء	289، 292	خيبر	292	جنين (علم)	304، 305، 310، 311
يوم الغفران	289، 290	عليّ	292	مسرى النبيّ	304
معارك الرسول	290	القدس	292، 302، 309	صهيون	304
أُحد	291	مِنى	293	سماك	304
خيبر	292	عرفات	293	فلسطين	305، 323
فتح النهرين (القادسية)	293، 321	الحجر الأسود	293	أبو منصور	305
ذي قار	293	زمزم	293	بيسان/معركة	305، 323،
معركة جنين	295	سعد	293	سكسون	307
تشريد أهل جنين	297	القعقاع	293	تميم/ربيعة	308
معارك أهل يثرب	297	مضر	293	قيس/نعيم	309
قصف الفدائيين (أحباء	300	المثنى	293	طلفاح	309
فتح مكّة	305	كسرى	293	أمريكا	315
		هامان	293	أخو عمشا	316
		اليهود	293	البويهي/السلجوقي	316
		أمريكا	293	شاه إيران/الثورة الإسلامية	318
		الأقصى	293	بغداد	320
		سناء (موسى)	295	الشام	320
		أذناب سام/سام	295	حيفا	320
		حام	295	العراق	321
		جيش الرافدين	295	عصبة القسام	321
		نبوخذ	296	برهان	323
		يثرب	296	مسجد يثرب/قباء	297
		شهود البقيع	296	قحطان	323
		فتح	300	عاد	324

ومن أشهر أمثلةِ هذا التناصّ تناصُّه مع معركة بدر في قصيدةِ تململ الليث، حيثُ يقول (العبوشي، ص288):

وأنّ أُسدَ فلسطين الأُلى صَمَدُوا يَفدونَ أمتهم بالروحِ والبصرِ

هُمُ الأُلى عوّدوا الدُّنيا الفِداءَ لَنَا أَحَبَّهُ اللهُ فِي القرآنِ والزُّبُرِ

قد رَوَّضُوا قلبَهُم بِالصّومِ وانتظروا نتيجةَ الصّومِ بدراً في ضيا القمرِ

وقد كتب الشّاعر القصيدةَ بمناسبةِ هُجومِ العرب في مصر والشّامِ على العدوّ المشتركِ في1973/10/6م، ويتحدّث فيها الشاعر عن صبر العرب في معركتهم ضد العدو الصهيونيّ، وفي السياقِ يذكرُ أبطالَ فلسطينَ الذي شبّههم بالأسودِ الصّامدين الذين هبّوا للدّفاعِ عن أمتهم وَافْتِدائِها بالرّوحِ، ويفترض الشاعر أنّ ذلك فيهم أمر اعتياديّ، لِما عُرف عنهم من طاعةِ الله التي تربوا عليها، ودليل ذلك ترويضهم أنفسهم بالصيامِ. وليعرض أثر الصيامِ ونتائجهِ، في النّفوسِ أتى على ذكرِ معركةِ بدر التي قدِمَ إليها المسلمون في شهر الصيام. فقد كان المسلمون قبل المعركةِ قد استعدوا روحيًا حيثُ كانوا صيامًا في شهر رمضان وغشّاهم النعاس، فأخذوا قِسطهم من الرّاحة التامّة، وصلوا الفجر خلف رسول الله ﷺ، وكانوا على وضوء وطهر تام عند رصّ الصُّفوف قُبيل المعركة. ومن المعجزات أنْ قلّل الله تعالى عدد المشركين في أعين المسلمين حتى تُثبت قلوبهم، وقلّل المسلمين في أعين المشركين أيضًا؛ حتى يستهينوا بهم، ولا يَنشطوا على قتالهم(الكَلاعي الأندلسي، ج2، ص 10 - 49).

وفي القصيدةِ ذاتها يقول في يومِ بدرٍ أيضًا (العبوشي، ص289):

وكانَ أوْلى بأهلِ الضّادِ أنْ يلِجوا بابَ الجِهادِ بجيشٍ واحدٍ مجرِ

يزلزلون رواسيَ الأرضِ إنْ زَحفوا اللهُ أكبرُ هاديهم مع القدرِ

فيومُ (بدرٍ) و(حطين) لهم عِبَرٌ وهل يُساوي أخا بَدْرٍ أخو كُفرِ

يَعْرِضُ الشّاعر في هذه الأبيات أمنيته بأنْ يقاتلَ المسلمونَ صفًّا واحدًا، في جيشٍ جرارٍ مُوحَّدٍ واحد؛ لكي يزلزلوا به الأرض تحت أقدامِ أعدائهم الصهاينة، كما كان المسلمون يَفْعلونَ قَبْلًا في بَدْرٍ وحطينَ، فالوحدةُ أحدُ أسباب النصر الأكيد، وقد ذكر الشاعر هنا بدرًا وحطينَ؛ لكيّ يذكر بالنصر الساحق الذي أحرزه المسلمون على الكافرين فيهما، تشجيعًا للعرب وتحميسًا ودعوةً للوحدةِ والقتالِ.

وفي قصيدةِ "يا رب" التي قالها في عامِ 1974م بمناسبة الحج، يقولُ في معركةِ بَدْر كذلك (العبوشي، ص292):

قد لاحَ بدرُ الدّجى في بدرَ فارتعدتْ فرائصي ورأيتُ العزمَ في عَضُدي

إذْ يُشيرُ في البيت إلى زيارته ساحةَ معركةِ بدر في أثناء حِجّه، وقد فاحت منها ذكريات عطرة جميلةٍ، ذكّرتهُ بمعركةِ بدرٍ الكُبرى، التي بَعثت في نفسِهِ وساعده الشُّعور بالقوّةِ والعظمةِ والاقتدار. وكأنّ ذِكر الاسم في هذا السياق دعوةُ إذكاءٍ لذكرى تلك الأيام العظيمةِ، واستمدادُ القوّة والعزم منها.

وفي هذا السِّياق، يَلْحظُ قارئ ديوان جنود السّماء أنّ العبوشيّ قد استخدم بعض الأسماء التاريخيّة ليتداخل معها، ليعمّق أثر دلالاتها، وذلك بأشكالٍ وهيئات وتكرارات مختلفة، فقد أتى على ذكرِ بعض الأسماء مرةً واحدةً، وذكر بعضها أكثر من مرّة، ومن الأسماء التي تناص بذكرها أكثر من مرة مكرّرًا إياها:

خالد بن الوليد	جنين (علم)	القدس	صلاح الدين	عَدَن/رضوان	محمد/النبيّ ﷺ	فلسطين	بيسان/معركة
6 مرات	4	3	2	2	2	2	2

وكما نَلحظُ، فَقَدْ تداخل شعر العبوشيّ مع **خالد بن الوليد** بشكلٍ لافت، إذ تناصّ بذكره ست مرات، وربّما يعودُ ذلك إلى أثر خالد بن الوليد في الإسلامِ والدّين، فقد اقترن اسمه بفتوح عظيمة يكادُ يكونُ أهمّها مشاركته في حروب الرّدة، أضف إلى ذلك، أنّ شخصَهُ ذا حضور بيّن في سطور التاريخ، ولاسمِهِ اعتبار بين النّاس. ولذلك أتى على ذكره ليحقّق من ذلك غاياتِهِ في تكثيف الدّلالةِ وتعميق المعنى، ولنأخذ مثلًا على ذلك، يقول العبوشيّ في قصيدة بعنوان "إلى الجهاد" قدَّمَها للشيخِ القسّام فخر الشّهداء وصحبِهِ الأبرار (العبوشي، 321-322):

فَرَنا إليكَ المجدُ يَمْسَحُ دمـ ـعةَ المُشتاقِ يَرجو للبَنينَ السُؤدُدا

أيّام سار ابنُ الوليدِ بِجَحفَلٍ لَجِبٍ كمَوجِ البَحْرِ إمّا أزبدا

في البيتين يتحدّث العبوشيّ مخاطبًا ممدوحه القسّام قائلًا له أنّ المجد يتطلعُ إليك ويراك البطل الذي يستطيعُ أنْ يعيدهُ ويعيد للأمّةِ مجدها، كما فعل خالد بن الوليد قبلًا. وقد أتى العبوشيّ على ذكر خالد بن الوليد لتعميق المعنى الذي يريدهُ، ففيه تكمنُ رموزٌ كثيرة، أهمّها: الصورة البطوليّة التي يتمتع بها في عقول وعيون المسلمين، والعرب.

وفي خالد يقولُ أيضًا في قصيدةِ "ألا هل زرتَ بيسانا؟" التي نشرتها جريدةُ الوَحدة في 20-1-1945م ردًا على الشّاعر علي منصور(العبوشي، ص305):

وروضٌ كانَ في تهذيبِهِ (رضــوان) جَنّـــانا

كساهُ جيشُ خالِدِهِ بيــوم الفتحِ مُرجــانا

إذْ يتحدّثُ فيها عن جمالِ بيسان، وأحزانِها بسبب الاحتلالِ البَغيضِ، وفي البيتين يَتَحدّث عن جِنانها التي تَبدو مِنَ التَّرتيبِ، والتَّنسيقِ، والجمال، كأنَّ (رضوان) خازن الجنّة، هو من نَسَقَها، وكأنّ خالد ابن الوليد يومَ فتحَ مكّة قد جلب إليها مُرجاناً كَسا به جِنانَها. فذِكرُ خالدٍ هُنا لم يكن عبثيًّا، فقد ذكره الشاعر من أجل أنْ يلمحَ إلى فتحِ مكّةَ، وما كان من نتائجِهِ العظيمة، وفي هذا شحذٌ للهمم، لفتحِ بيسان وفلسطين اقتداءً بهذا القائد الفاتحِ العظيم.

وبذا، نلحظ أنّ العبوشيَّ بذكر تلك الحوادث التاريخيّة كلّها التي لقومِهِ على خُصومِهم، أو التي تُظهر هزيمة الخصومِ وضعفهم أمام قومه، وأسماء بعض أبطالهم ليتناصّ معها، يخدم الهدف الذي يريده والمعنى الذي يسعى وراءه دون مباشرته، فهو قد ذَكرها من أجلِ أنْ يُعيد هذه الذكريات الجميلة المشرقة المقترنة بأسمائها، ويحفز الهمم والنفوس.

ويُلاحَظُ أخيرًا، في هَذا المِحْوَرِ تراكمُ عمليّات الاستعانة بالمصادر الثقافيّة والتّناصّ معها، ومن ثَمّ اتساع مداها التأثيريّ، نتيجةَ إفساحها المجال لتداخل أكثر من حدثٍ، أو شخصيّة تاريخيّة في النصّ الشعريّ. وهو ما يُعطي أهميّةً خاصّة للتّناص في شِعر العبوشيّ، ولتتأمّل في ذلك على سبيلِ المثالِ قصيدته حنانكَ بيتَ اللهِ، فقد بلغ عددُ التناصاتِ المختلفةِ فيها اثنين وعشرين تناصًا، هذا إذا استثنينا قصيدة الفُرقان التي تناصَّ الشّاعرُ فيها مِائةً وثمان عشرة مرةً.

الخاتمة:

لمسنا بعد هذه الجولةِ الدراسيّةِ أَنّ المصادِرَ الثقافيّة في شِعرِ الشاعر الفلسطينيّ برهان الدين العبوشيّ قد كانت متنوعةً متعدّدةً، وذلك بفضلِ الاستعانةِ بالمنهجِ الوصفيّ، وآليةً حديثةً لاستخراجِ تلك المصادِر مِن مظانّها، وهي آلية التناصّ الفاعلة في هذا الجانبِ. وبهذا فالبحثُ يخلصُ إلى بعض النتائجِ، وأهمّها:

- مصادرُ الشاعر العبوشيّ أصيلةٌ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بثقافةِ الإنسان العربيّ المُسلم، وهي كانت ما تزالُ قويّة في تلك الفترة التاريخيّة مِن حياة الأمّةِ العربيّةِ، والإنسان الفلسطينيّ.
- شكّلت المصادر الثقافيّة الدينية دورًا محوريًّا في شِعر برهان الدين العبوشيّ، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار أنّ هناك تفاوتًا بين قصائد الديوان في نوع هذا المصدر وطريقة التناصّ معه.
- كانَ القرآن الكريم المصدر الثقافي الأهم مِن مصادر الشاعر العبوشيّ، حتّى إنّ التناصّ معه في شِعره يَطْغَى عَلَى أَنْوَاعِ التناصّ الأخرى، التي لم نولِها الأهميّة هُنا لقلتها وندرتها، إلاّ الحديث النبويّ لعظمِ أثره، وإنْ قلّت إشاراتُهُ. فقد تضمنت أبياتُ قصائِدِهِ كمًّا كبيرًا من الإشارات التي تعودُ في أصلها إلى آياتِ القرآنِ الكريم.
- إنّ المساحةَ التي شَغلتها النّصُوص الدّينيّة في شِعر العبوشي واسعةٌ جدًّا مقايسة بنصوصِ شعريّة أخرى. وهذا يشيرُ إلى أنّ الشاعر لم يستطع تجاوز ضغوط المصادر الثقافيّة الأساسيّة للمسلم والعربيّ، إلاّ في أحايين قليلة، تحتَ وطأةِ قوّةِ هذه المصادر، وقوة تأثيرها، وتحت ضغطِ الفكرةِ والمعنى. فالقرآن من حيثُ هو نصّ يفسّرُ الكون وينظر للإنسانِ ويراعي إلى درجةٍ كبيرة علاقةَ الإنسان بربِهِ ونفسه، يشكّلُ محورًا مهمًّا من حياةِ المسلمِ، استنبط منه مواقفَ تَنْسَجِمُ مع مُتطلبات واقعِه، بهدفِ إثراء دلالاتِه، وتعميقِ مغزاه بالرّبطِ بين الرّؤيةِ الذاتيّة، وحقيقةِ النصّ القرآنيّ وهدفه. وهُو بذلك كلّه يُلِحُّ على نوعٍ آخر أقربُ ما يكونُ في طريقةِ تناوُلِهِ إلى الرؤيةِ الخاصّةِ التي تخلق علاقاتٍ بين النّصُوص الشعريّة القديمةِ والنصّ الدينيّ الجديد الذي استطاع من خلاله أنْ يُحَيّدوا مَقْصِدهُ بدقّة معنويّة وبنيويّة.
- من الملاحظ أيضًا أنَّ برهان الدين العبوشي في كثير من الأحيانِ كان يتناصّ مع القَصَصِ القرآنيّ بِشَكْلٍ لافتٍ مُثيرٍ للإعْجَابِ. فقد استطاع التوفيقَ بِمَهارةٍ وحِنْكَةٍ بَيْنَ القِصّة القُرآنيّة الأمّ والهدف، فأسقط الأولى على الثانية، سعيًا وراء قوّةِ التأثير واستقصاء العبرةِ.
- تداخل الشاعر مع المصادر الثقافية كانَ في كثير من الأحيانِ مباشرًا واضحًا بيّنًا، وكأنّ هدفه من هذا هو عرض المصدر لا الاستفادةِ من الإمكاناتِ الكبيرةِ التي يتيحها التناصّ غير المباشر خاصةً إثراء الدلالةِ وتقويتها.

التَّتَبُعُ الجُزئيّ لِما سَبَقَ يكشف أنّ برهان الدين العبوشي قد نوّع مصادره وتناصّ معها في ستةِ أصنافٍ هي:

- استعانةُ العبوشيّ بمصادره الثقافيّةِ كانت على الأغلب بالتناصّ مع بعض مفردات المصدرِ؛ فالتداخلُ مع المستوى التركيبيّ كانَ بنسبةٍ أقل بكثير، وإنْ كانتْ تقتربُ من سابقها، وهذانِ المحورانِ – الإفراديّ والتركيبيّ - يُشَكِلانِ التَّعامل التناصّيّ الغالب في تناصّات برهان الدين العبوشي. أمَّا بَقِيَّةُ التناصّاتِ فتَأخُذُ طَبِيعةً هامشيّةً مقابلةً بهما، أو لنقل بتناصّ المفردات على وجهِ التحديد، وإنْ كان ذلك لا ينفي دورها البالغ في توجيهِ الدلالةِ في شعره كما لا يُلغي وجودها.
- إنّ مصادر العبوشي الثقافيّة قد توزّعت على عدّة محاور، لكلٍّ منها دورُه في إنتاج الدلالةِ، أو توجيهها. كما أنَّها من جانب آخر أخذت أشكالًا دينيّة وتاريخيّة تفاعلت مع النصّ الشعريّ بطريقةٍ لافتة بسيطةٍ، لا يتعدى الشكل اللغوي.

وأخيرًا، أقولُ ما كُنتُ بدأتُ هذه الدراسةِ إلاّ محاولة مني لإلقاء ضوء ولو صغيرٍ على هذه المصادر التي يجبُ أنْ تبقى حيةً في نفوسِ المسلمين والعرب، لِما فيها مِن خير وصلاح للمسلمين وغيرهم، خاصّة في ظلّ ما يعانيه عالمُ اليومِ مِن ضياعٍ.

المراجع:

القرآن الكريم.

البيضاوي، ناصر الدين. (د.ت). *أنوار التنزيل وأسرار التأويل (5 أجزاء)*. دار الفكر.

الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك. (1975). *سُنَنُ التِّرْمِذِيّ*. (5 أجزاء)، (ط2)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ4، 5)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

جابر، ناصر يوسف إبراهيم. (2002). *المفارقة في الشعر العربيّ الحديث – محمود درويش. أمل دنقل، سعدي يوسف – نموذجاً*. (ط1)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الجبر، خالد، (2004). *تَحولات التناص في شعر محمود درويش*. جامعة البترا.

أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف. (د.ت). *تفسير البحر المحيط*. (8 أجزاء)، دار الفكر.

الخازن، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي. (1979). *تفسير الخازن المسمّى لُبابُ التأويل في معاني التنزيل*. عدد الأجزاء / 7، دار الفكر.

الخلوتي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفيّ. (د.ت). *تفسير روح البيان*. عدد الأجزاء / 10، دار إحياء التراث العربي.

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي. (د.ت). *سُنَن أبي داود*. (4 أجزاء)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تعليق كَمَال يوسُفْ الحوُت، الأحاديث مذيلة بأحكام الألباني عليها، دارُ الفِكْر.

درويش، محمود. (1986). *ديوان ورد أقل*. المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

أبو كشك، زاهرة. (2014). *الالتزام السياسي في شعر برهان الدين العبوشي*.

الزعبي، أحمد. (1995). *التناصّ - نظريّاً وتطبيقيّاً - مقدمة نظريّة مع دراسة تطبيقيّة في رواية " رؤيا " لهاشم غرايبة، وقصيدة " راية القلب " لإبراهيم نصر الله*. (ط1) ، إربد، مكتبة الكتاني.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي. (د.ت). *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل*. (أربعة أجزاء)، ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ.

الزواتي، حلمي. (1985). *برهان الدين العبوشي نضاله الوطني وشعره*. جريدة الأنباء الكويتيّة، الأنباء الثقافيّة.

عصيدة، شمس الدين غنام. (2012). *برهان الدين العبوشي أديبا*. إشراف عادل أبو عمشة، جامعة النجاح الوطنيّة.

الصمادي، امتنان. (2001). *شِعْرُ سَعْدي يوسف - دراسة تحليليّة*. (ط1)، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

عبد المطلب، محمد. (1995). *قراءات أسلوبيّة في الشعر الحديث*. الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

الغذامي، عبد الله محمد. (1998). *الخطيئة والتكفير من البنيويّة إلى التشريحيّة -قراءات نقدية لنموذج معاصر*. (ط4)، الهيئة المصريّة العامة للكتاب.

الغذامي، عبد الله محمد. (2000). *رحلة المعنى من بطنِ الشاعر إلى بطنِ القارئ*. بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين - الجزء الثالث، مكّة المكرمة، جامعة أمّ القُرى.

القُرطبيّ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي. (1964). *الجامع لأحكام القرآن - تفسير القرطبي*. (20 جزءاً / 10 مجلدات)، (ط2)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية.

الكَلاعي الأندلسي، أبو الربيع سليمان بن موسى. (1417ه). *الاكتفاءُ بما تضمنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء*. (عدد الأجزاء / 4)، (ط1)، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، بيروت، عالم الكتب.

المقدسيّ، عبد الله بن أحمد بن قدامة. (1405ه). *المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني*. (10 أجزاء)، (ط1)، بيروت، دار الفكر.

النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي. (2002). *الكَشْفُ والبيان*. (10 أجزاء)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، (ط1)، دار إحياء التراث العربي.

ابن هشام، جمال الدين أبو محمد عبد الملك الحِمْيريّ. (2006). *السيرة النبويّة*. تحقيق: جودة محمد جودة، دار ابن الهيثم.